دور رحلة الحج في نشر الثقافة والعلوم الإسلامية في بلاد الهوسا

الدكتور أسامة مغاجي إمام[١]

مستخلص الورقة:

يحاول الباحث – من خلال هذه الدراسة– إبراز بعض أهم المعالم الإسلامية الثقافية العربية قي بلاد الهوسا–دولة نيجيريا حاليا– من التراث الذي خلفته الرحلة الإيمانية – عبر الطرق التقليدية القديمة المتاحة البرية والبحرية– إلى الأراضي المقدسة، لأداء فريضة الحج الذي فرضه الله تبارك وتعالى على عباده، في سنين ما قبل القرن العشرين الهجري. في هذه الدولة الإفريقية الكبيرة بثقلها السكاني ورموزها الدينية وآثارها الإسلامية الثقافية والتاريخية، في مدن مشهورة تم إنشاؤها ببركة قوافل الحجيج وموكب الوفود المارة ببلاد الهوسا–نيجيريا– ومراكز إسلامية التي ما تزال تعطي وتفيض على الذين يرتادونها من العلوم الإسلامية والثقافة العربية، بفضل هذه الرحلة الفريدة الفريدة من نوعها على مرور مئات السنين من القرون في التاريخ البشري على هذه الأرض العامرة.

كذلك كيف ساهمت الرحلة في تسهيل سبل الدعوة، وتذليل الصعاب لايصال هذا الخير إلى كافة شرائح هذه الشعوب النيجيرية على مستوى المؤسسات والحكومية والجماعات والأفراد. كما اختتمت الورقة بخلاصة وخاتمة وتوصيات.

مدخل: ستظل أرض الحجاز في نفوس المسلمين محل عشق وغرام ولهب شوق لدى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها،وكيف لا تكون كذلك وهي منشأ النور المحمدي، ومهد النبوة والرسالة، فكل مؤمن يحن اشتياقا لأداء فريضة الحج، و لم يك حظ المسلم الإفريقي–بوجه عام والمسلم النيجيري بوجه خاص، من هذا الوله– قسطا يسيرا. وذلك ليؤكد أن الله سبحانه وتعالى قد استجاب لنبيه الكريم إبراهيم الخليل–عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم– حيث جعل أفئدة من الناس تهوي إليها،وجعل في قلب كل مسلم الهم الأول، قبل كل شيء، هو الفوز بزيارة هذه الأرض المقدسة، ليسعد بأداء المناسك، ويسعد بالتلبية بين التلال الطاهرة والوديان العامرة، يردد التلبية وتتجاوب أصداء تلك البقاع بالنغم الهاني في تهليل وتكبير، عملا بقول الصحابي الجليل سيدنا أنس بن مالك–رضي الله عنه[كان يهل المهل فلا ينكر عليه، ويكبر المكبر فلا ينكر عليه [٢]. تغمره المتعة بلقاء المسلم في طريق الحج وفرحة التعارف بين المسلمين من أطراف الأرض وروعة مشاهد الألوف، بل الملايين خلال رحلته المقدسة وقد أضاف الله تبارك وتعالى من وجوده وآلائه تلك الأحاسيس الدافئة المتدفقة، وهي تروي القلوب وتزرع فيها الشوق والحنين إلى هنالك، ولولا كل هذه المشاعر والإحساس يرفرف بين ضلوع، لما كان هناك من دافع يدفع المسلم إلى وديان قفر، والبقع الصحراوية، حيث لا نبت و لا زرع وضروع. بعد أن استولى على أفكارهم وأحاديثهم الساعة في المحافل والمناسبات الدينية لأداء الركن الخامس والأخير من أركان الإسلام الحنيف، الذي لا يستكمل الدين إلا به. يقول الله تبارك وتعالي حاكيا عن نبيه إبراهيم –عليه الصلاة والسلام–: {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم } [٣]..

---

[١] جامعة ولاية بوتشي، نيجيريا، قسم الدراسات الإسلامية

[٢]– أخرجه الإمام مالك عن محمد بن أبي بكر الثقفي، ص ٣٦٩–٣٧٠. ط مكتبة القاضي شريف بلا كنو،٢٠٠٧م.

[٣]– سورة إبراهيم ٣٧.

جعل الله تبارك وتعالى البيت الحرام مثابة للناس وأمنا، وإن الرحلة إلى الحج لهي العبادة الوحيدة التي يلزم المسلم على نفسه وشق عليها–أحيانا– تراه ويدخر للفوز بها، وكثيرا ما ترى الإنسان يجاور بيته المسجد الجامع، ولا تراه حريصا على أداء الفريضة فيها لدرجة حرصه الشديد على السفر إلى الحج. وكذلك الشأن مع الصوم بعد صيام الفريضة في شهر رمضان، هكذا الأمر في شأن الصدقات –الزكاة– رغم أن الجميع من أركان الإسلام الخمسة. وإنك لتأخذك الحيرة والإعجاب عندما ترى الإنسان المسلم يحاول ويسعى ويستعد للسفر إلى الحج، ويكاد لا يهدأ له بال، وكل ذلك وغيره من معجزات هذا الدين في السر الذي جعل الله تبارك وتعالى في شأن الحج والبلد الحرام وإن ذلك لحق، فقد جعل الله الكعبة البيت الحرام مثابة للناس وأمنا، يقول الله جل شأنه: { وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا}[٤] ومثابة للناس، أي مرجعا يثوبون إليه أي يترددون إليه من كل جانب. ذاك الذي يحرك وجدان المسلم الإفريقي فتراه على وجل يعقد العزم لهذه الرحلة الإيمانية–رحلة العمر–ينفرد بها هو حده بين الشعوب الإفريقية الأخرى وليس فيها من لها –في تاريخها القديم والقريب–من كان لها مثل ما لهذه الرحلة الإيمانية الفذة ومن الذي يقطع آلاف الكيلومترات يجوب الفيافي إلى بقعة ليس له فيه مأرب تجاري أو لصلة قرابة أو لحطام منصب. إلا في هذه الأمة المباركة التي أخرجت للناس. ومن الحكمة أنه يشاهد أمما اختلفت ألسنتهم وأشكالهم، وتباعدت أقطارهم عن البيت الحرام، وتباينت عاداتهم، واتحدت نياتهم فاجتمعوا لعبادة واحدة في أرض واحدة، على دين واحد، يرجون رحمة الله ويخافون الانتقام، وفي ذلك كمال الارتباط ودوام الاتحاد لتتجلى عظمة دين الله لهم، وتظهر بهجته عليهم إذ تقبلهم وجعل حجهم مبرورا وسعيهم مشكورا، فهنيئا لهم لما شاهدوا من المنافع العظيمة، وما نالوا من الفضل والإنعام.

بما أن الوسائل المؤدية إلى أرض الحجاز والسبل المتاحة في تلك الأزمان منحصرة في وسيلتين اثنتين–الطريق البري والطريق البحري– أصبح المسلم الإفريقي يشق طريقه مستصحبا معه إيمانه القوي، وعزيمته اللامتناهية، يدخل على القرية ويخرج منها يتعامل من خلالها بألسنتهم، ويتعرف على ألوانهم مما أحدث للتاريخ حدثا عظيما لا تنسى وأصبح للعربية والعلوم الإسلامية وجود بين الشعوب الإفريقية.

وحظ بلاد الهوسا في ذلك ليس بقليل ثقافة وعلما وتعليما. وما تركته هذه الرحلة الإيمانية من أثر هو موضوع هذه الورقة وسوف يتجلى في الآتي ذكره.

أولا: بداية إعلان القافلة ووقعه الخاص في المجتمع النيجيري :

ما إن يعلن الرجل بأنه عقد عزماً للسفر إلى الحج حتى يصل الخبر، وينتشر في أوساط المجتمع و تأخذ الأرجاء بالتهليل والتكبير لله سبحانه وتعالى، وتراهم يتدفقون إلى رب منزل الرجل، ويأخذ المكان من الزينة من نصب الكراسي والأريكة والأوسد، يخرج مستقبلا المهنئين يلقون التبريكات، يكون لهذا الحدث وقع في النفس، وأثر بالغ الأهمية، وفي بلاد اليوربا أكثر من ذلك بكثير الكثير. وهكذا تتواصل الجماعات والقراء والمداحين، يواصلوا تعطير المكان بالتلاوة وقراءة المدائح النبوية، ويتحول المكان إلى مأوى للناس القائلين والرائحين، إلى أن يحين موعد التحرك، بعد أن أعد العدة من توفير مستلزمات، وتسليم الوصية بعد كتابتها، وتوديع أهله وذويه[٥]. وكل ذلك –أي تسليم الوصية وسداد الديون وتقديم الصدقات–على رأس الشهود. وأكبر تشوقا للمنظر في تلكم الوقت الذي يخرج من بيته ليلحق بالقافلة المتجهة إلى الحجاز التي تم إبرام الاتفاق لاصطحابه إلى الأرض المقدسة. والقرية تخرج عن بكرة أبيها مودعة الحاج، ويرحل تاركا وراءه الشوق يغمر الجيران والسكان، ويُدخل

---

[٤]– سورة البقرة ١٢٥.

[٥]– الشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله الكولخي، الرحلة الحجازية الأولى، ص ٢١. مخطوط

الأمل في قلوب اليائسين الذين لا يجدون ما يسدون به الرمق، يتمنون الذهاب، ما دام في العمر بقية، في الأعوام المقبلة. وكلهم شوق وحنين إلى بيت الله الحرام حداؤهم حداء البرعي اليمني –عليه الرحمة والغفران.

يـــــا راحلين إلى منى بقياد هيجتمو يوم الرحيل فؤادي
سرتم وسار دليلكم يا وحشتي الشوق أقلقني وصوت الحادي

تترك هذه المراسيم التوديعية لقافلة الحجيج في بلاد الهوسا من الحدث التاريخي، وليس ذلك منحصرا بين المسلمين فحسب، بل حتى الوثنيين المجاورين لهم. وكم تمنى غير واحد أن لو كان هو في ذلك المقام العالي الرفيع. ويمكن تصنيف الحجيج المتوجهين إلى البلد الحرام–حسب الوضع والمكانة– إلى ثلاثة أصناف: (قافلة موكب الحجاج التجار.قافلة موكب الحجاج العلماء والدعاة.قافلة موكب الحجاج الملوك والأمراء والسلاطين.) ولكل صنف من هذه الأصناف الثلاثة دورها الايجابي في ترسيخ معالم الدين والثقافة العربية، والتي ساهمت في بناء الحضارة الإسلامية ببلاد الهوسا–دولة نيجيريا.

قافلة موكب الحجاج العامة التجار:

هناك علاقة قديمة–وذلك قبل دخول الإسلام في القارة الإفريقية بسنوات عديدة–بين البلاد التي كانت العرب تطلقون عليها اسم المغرب، وبين البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى. وكان هنالك خطوط تجارية مشهورة قد اعتادت القوافل السير عليها، منها ما كانت تبدأ من مراكش وتلمسان ثم تونس وتربط بطرابلس وتدخل مصر متجهة إلى الجنوب حيث تجتاز الصحراء الكبرى، وتنتهي بمراكز تجارية رئيسية في غربي إفريقيا مثل غانه القديمة وإلى تمبكتو، ثم تشق إلى ولايات الهوسا فكانم برنو وهكذا. ومنها تنبثق وتتفرع إلى جهات مختلفة مثل صوب المغرب وإلى أوجلة ومرزوق، لتتصل بقافلة أخرى من طرابلس. ثمة خط آخر يستمر جنوبا إلى أن يصل إلى غاط، حيث يلتقي بقافلة القادمة من تونس ثم يتجهان جنوبا إلى ولايات الهوسا عن طريق أهير[٦].

لعبت القوافل التجارية التي تربط من– خلال هذه الخطوط–كل من مدن غانة القديمة وتمبكتو TimbuktuوجاوAgo، وجني Jane، وكنو Kano، وكتشنةKatina. وكانم برنو Kane Bor، في تسهيل وتذليل مرور الحجيج القادمين من إفريقيا جنوب الصحراء، الذين يصطحبون التجار لمعرفتهم بأسرار المنطقة عبر الخطوط البرية المتسعة في إفريقيا الغربية من كافة منافذ الجنوب الصحراوية. وقيام الممالك الهوساوية أمثال كنوKano، وكتشنة Katsina، وزكزك Zazzau، وكان القرن العاشر الميلادي هو بداية الاتصال التجاري الذي أصبح طبيعيا للحجيج الأفارقة، الذين يصطحبونهم وسهل لهم التحرك والتنقل. ويتخذ الحجيج التجار دليلا لهم على الطريق في الرحلة الإيمانية للحج. وبفضل رحلة الحجاج تم إنشاء أكبر سوق تجاري في ذلك الزمن (سوق كرمي) Kurmi Market في مدينة كنو. وهذا الصنف من القافلة من أثقل القوافل الحجاج لأنه ضم أكبر عددا من الحجاج العامة كانوا يعتمدون عليها كليا لذلك كثر فيه الوصايا والأمانات، وكانت الاتصال بهم أحيان ينقطع لعدم معرفة بعضهم البعض. فالقافلة هي فقط تجمعهم وليس هنالك معرفة بهم فضلا عن ذويهم وأقاربهم. وكان الحجاج يخرجون بأسرهم، ويغلقون منازلهم وبيوتهم عنهم بعد أن تركوها للجيران والأقارب. كما يتركون، ممتلكاتهم من بساتين وحقول ومزارع حتى بعد العودة إلى الديار–إذا كتبهم الله تعالى ذلك– ومنهم من فقد أهله وذويه وهو في طريقه إلى الحج، ومنهم من مات أبوه وهو في بطن أمه، ومنهم من

---

[٦]– لخص المؤرخ بوبيل (Bovil) أربعة طرق رئيسية كانت تربط الجنوب والجنوب وهي: (أ – من سجلماسة إلى ولات إلى بلاد السنغال وأعالي نهر نيجر.ب – من غدماس إلى بلاد الهوسا عن طريق غاط وأهير. ج – من طرابلس ليبيا إلى برنو ونهر تشاد (lake tchad) مارة بفازان وكوار. د – وطريقة أخرى من قورينة (cyrenaica) إلى وداي عن طريق كفرة.

كانت ذهبت وهي حبلى فضلت عن الرفقة فولدته فماتت عطشا وبقي ثلاثة أيام حتى مرت به رفقة أخرى فحملوه إلى بيوتهم حتى شب وتعلم هناك[٧]. وما تزال في بالبلاد الهوسا–تشهد تلك الأطلال للذين خرجوا إلى الحجاز، ولم يكتب لهم العودة، والبعض منهم قضوا نحبهم من على الذهاب، والبعض الآخر في طريقهم إلى الديار ويعرف الذين سافروا إلى الحجاز عن بكرة أبيهم وعادوا بعد عشرات السنين مع الأحفاد و مات الأجداد في الطريق بيت الحجاج(Gidan Alhazawa). وقلما تجد مدينة عامرة في كافة بلاد الهوسا إلا وفها أمثال هذه البيوت والمنازل. وأصبح كبار أهل هذه الديار محل رواية الوقائع والأحداث التي مروا بها وتجارب خاضوها، وهم في أثناء هذه الرحلة الإيمانية.

قافلة موكب الحجاج العلماء والدعاة:

تختلف هذه الصنف من القافلة عن سابقتها من أوجه كثيرة، ذلك أن القافلة السابقة تتحرك عبر المدن والقرى ببضاعتها التجارية ليسهل لهم العيش والاعتماد والاكتفاء الذاتي، أما باقي الأفراد للحجيج الذين يرافقهم يزاولون أعمالا مقابل ما يتقاضوه من مؤنة السفر.

لكن الأمر يختلف هنا مع العلماء والدعاة الذين يريدون الحج عبر الصحراء الجنوبية، وكان تنقلهم من بلد إلى بلد أخر بمثابة طلب العلم، والتعرف على علماء البلاد، أو طلبا للعلم والتماسا للرزق والحياة، وكانوا يدرسون ويتعلمون، وما إن سمعوا بمراكز تعليمية حتى قصدوه، واتصلوا بعلمائها للفائدة والاستفادة، أو بملوكها وسلاطينها لتبليغ رسالة الإسلام وما يعود من مصلحة للإسلام وللرعية. وأحيانا يكتبون للملك أو السلطان ما يحتاجه من أمور الحكم وإدارة البلاد.

ودخل جماعة من العلماء والدعاة إلى بلاد الهوسا عن طريق منافذ مملكة صنغاي، ودخلوا مدينة كنو في عهد الملك يعقوب بن تساقي والد محمد رمفا. وقد أحضروا معهم كتب التوحيد واللغة، وكان الناس قبل ذلك ليست لهم معرفة بكتب اللغة إلا كتب الحديث والفقه بعد القرآن الكريم . كما دخل البلاد الشيخ محمد التونسي، وهو في طريقه إلى الحج الذي أوفد إلى البلاد بكتاب الشفا للقاضي عياض كما مرَّ ببلاد الهوسا الشيخ عبد السلام من المغرب، ومعه كتاب المدونة لابن قاسم والجامع الصغير والسمرقندي[٨].

ومن أشهر وأعظم من دخل البلاد من العلماء وانتفع به العباد والبلاد –وهو في طريقه إلى الأراضي المقدسة–هو الشيخ محمد ابن عبدالكريم المغيلي[٩]. ذلك العالم الجليل المصلح الذي دخل بلاد الهوسا وجال في المدن والقرى إلى أن دخل مدينة كنو في عهد الملك محمد رمفا(Muhammadu Rumfa) واستقبله الملك استقبالا عظيما وأكرمه غاية الإكرام،وقد اتخذه الملك صديقا أمينا وشيخا هاديا إلى أن أصبح مستشارا خاصا له–يستشيره في أمور الدين والدولة.

ولهذا الشيخ المغيلي وصية مشهورة كان قد كتبها لملك محمد رمفا، لتكون مرجعا له في سياسته، وكانت بمنزلة دستور حكومي دقيق. وأكد الشيخ المغيلي وجوب درء المفاسد الدينية والدنيوية بالقوة[١٠] كان لهذه الزيارة

---

[٧] – أمير المؤمنين محمد بيلو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، ص٣١.

[٨] – .Kano Studies, Volume 1 N04, 1968,pp17. و تاريخ كنوص ٢٧.

[٩]– هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي، ولد في سنة ١٤٢٥م تقريبا ونشأ بتلمسان، ولا تزال بعض ذريته في مدينة كنو حاضرة ولاية كنو وكانوا حتى الآن من حاشية الملك.

[١٠]– د. شيخو أحمد سعيد غلادنثي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا،ط ٢، المكتبة الإفريقية، ص ٤٢–٤٣. ١٩٩٣م–١٤١٤هـ.

أثر بالغ في نشر الثقافة الإسلامية في هذه المملكة. كما دخل إمارة كتشنة وأسلم على يديه الملك كتشنة(Katsina)محمد كرو (Korau)١٤٩٣م.

ومن الذين دخلوا هذه البلاد أيضا جماعة من الوناكرة أو الونكرة أو الوناغرة وتوغلوا في كل من إمارة كتشنة وكنو وزكزك، وانتشر في أيديهم الإسلام بفضل المعاملة والأخلاق الحميدة والموعظة الحسنة وخلوا على ملوك وثنيين وحسن جوارهم ونور الله قلوب بعض من الملوك والسلاطين فدخلوا في الدين الإسلامي الحنيف، وهم الذين أسلم على يديهم الملك علي ياجي(Aliyu Yaji)[١١] وتعتبر هذه الجماعة من الونكرة هم الذين نشروا الإسلام والثقافة العربية في بلاد الهوسا وإليهم انتهت الزعامة الدينية قبل الحركة الإصلاحية التي قادتها جماعة من أتباع الشيخ عثمان دان فوديو[١٢].

ومن الذين خرجوا لحج وهم من أهل البلاد الشيخ محمد الفلاني الكشناوي الذي اتصل من خلال الرحلة بالشيخ الحسن الجبرتي وصادقه وأقام عنده في القاهرة مدة خمسة أشهر، وساعتها قرأ الوالية للكردي –وهو كتاب في علم الرمل والأسرار وحج سنة ١١٤٢هجريةوفي المكة المكرمة ابتدأ تأليف الدرر المنظوم في علم الطلاسم والنجوم[١٣] ومن الذين خرجوا للحج من بلاد الهوسا أحمد بن عمر بن أحمد أقيت حج سنة ٩٨٠هجرية ثم عاد ودخل كنو وكتشنة ودرس وأفاد فيها، ولقي هذا العالم –حين مر بمصر في طريقه لحج– الشيخ جلال الدين السيوطي ، كما التقى بالشيخ الخالد الوقاد الأزهري وغيرهما، وإذ أثبتت زيارة الشيخ جلال الدين السيوطي إلى بلاد الهوسا فإن هذا الشيخ هو همزة وصل بينه وبين البلاد التي تزعم كتب التاريخ بأنه زارها.

وبفضل تلكم القوافل العلمية الدعوية التي تمر بالبلاد وهم في طريقهم إلى الحج أصبحت تلك الخطوط والطرق الصحراوية خطوطا ثقافية إسلامية تربط منطقة بالأخرى وبانتشار الإسلام انتشر التعليم وأصبحت بعض المراكز التجارية مراكز أيضا للتعليم والثقافة العربية الإسلامية وكونت صلة ثقافية وثيقة قوية بمراكز التعليم الرئيسية في العالم الإسلامي منذ القرن الخامس عشر وخاصة مصر وطرابلس وتمبكتو ومدينة فاس والحجاز. وقد لعب– السفر إلى الحج – دورا عاملا مساعدا في ربط العلاقات الثقافية .

رحلة الحج في عهد مملكة صكوتو:

أصبحت دولة صكتو همزة وصل بين الحجاج الذين يقدمون من الدول الإفريقية الغربية لأداء مناسك الحج وزيارة المصطفى–صلى الله عليه وآله وسم– وقد استقبل البلاد أكابر من العلماء والصالحين، وزودوا المملكة بالكتب الدينية والثقافة العربية ونفعوا العباد والبلاد. إلا أنه يبدو أن الشيخ عثمان دان فوديو لم يخرج إلى الحج قبل قيام الدولة وحتى بعدها، غير تلك العزمة التي عقدها ليصاحب شيخه العالم جبريل لما خرج شيخه العالم جبريل، قاصدا الحج. في المرة الأولى كما سيأتي.

---

[١١]– محمد الوالي، كتاب النصائح، ص ١٣٦، مخطوط.

[١٢]– تذكر الوثائق التاريخية من أن جماعة الونكرة جاؤا من مملكة غانة القديمة (الموريتانيا حاليا)التي انقرضت واندرست إثر غارات وغزوات التي خاضوها مع دولة صنغاي. ولهذه القبيلة أو الجماعة الفضل الكبير في انتشار الإسلام في بلاد الهوسا وكثير منهم منتشرونفي أمارات كنو وكتشنة و زكزك. وفي دمينة زاريا حاضرة إماروة ززو (Zazzau) وهم جماعة رعاة ماشية. ويقال أنهم أول من أقاموا صلاة الجمعة في إمارة زكزك. وهم الذين سكنوا غرب مدينة زاريا الآ، وسمي منطقتهم التي سكنوها ب–أنغون جوما– (Anguwan Juma) وهي كلمة عربية محرفة من الجمعة فحذفو الآلف واللام والتاء المربوطة الأخيرة وجعلوا آخرها الف ممدود. وكتبوها ونطقوها هكذا(جوما) . وهم رحلوا من كتشنة، وما يزال إمامة المسجد الجامع العتيق لمدينة زاريا من سلالة هذه الجماعة(الونكرة) وأيهم انتهى الزعامة الدينية في إمارة زكزك. والإمام الخطيب لجامع المدينة حاليا من خريج جامعة إفريقيا العالمية الشيخ طلحة ابن الشيخ الإمام محمد القاسم. وكان تنصيبه في العام الماضي ٢٠١٥م في شهر رمضان المعظم.

[١٣] – الجبرتي، عبد الرحمن بن الحسن،عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، مطبعة بولاق،ج١ ،ص ١٥٩.

خرج الإمام العامل الجليل الشيخ جبريل بن عمر إلى الحج مرتين وأقام مدة طويلة في حجه الأول، وهو الذي درَّس الشيخ عثمان دان فوديو، ويقول أمير المؤمنين محمد بيلو إن الشيخ عثمان دان فوديو أراد أن يصاحب الشيخ جبريل إلى الحج إلا أن شيخه لم يقبل بذلك معللا أنه لم يستأذن والديه وأدركته المنية وهو بأرض أغاديس وهو عائد من الأراضي المقدسة. سافر العالم الجليل محمد سمبو بن عبد الله بن محمد إلى الحجاز للحج، وكان من أجل علماء دولة صكتو في القرن الثامن عشر، يقول علامة السودان عبد الله بن فوديو واصفا هذا الشيخ عند خروجه للحج بقوله: ‘إنه لم يترك فينا حين خرج أفضل منه في العلم والصلاح’[١٤].

وفي عهد أمير المؤمنين محمد بيلو دخل العالم الجليل عمر بن سعيد الفوتي عاصمة خلافة مملكة صكتو قادما من أرض فوتا يريد الحج، ومكث في البلاد مدة من الزمن وتزوج من الأسرة الفودية وأسس مدينة عريقة في مقاطعة الشمال الشرقي من بلاد الهوسا[١٥].جال في بلاد الهوسا وزار مدنا كثيرا وتأثر بالحركة الإصلاحية التي قام بها الشيخ عثمان دان فوديو، وأعجب بها –وهذا الذي دفعه إلى التفكير للقيام بالجهاد في منطقة فوتا بأرض مالي، وإلى الشيخ عمر الفوتي يرجع الفضل في نشر الطريقة التجانية ببلاد الهوسا أيام وجوده بينهم .[١٦] وإلى الشيخ عمر الفوتي ينسب سبب انتماء أمير المؤمنين محمد بيلو ابن الشيخ عثمان دان فويو إلى الطريقة التجانية[١٧].

وفي الأوائل القرن العشرين الميلادي دخل عالم بلاد الهوسا قادما من أرض السنغال يريد الحج وسجل لنا رحلته الإيمانية إلى بلد الله الحرام وصور لنا بأسلوب أدبي رقيق وسلس فى دفتر أسماها(الرحلة الحجازية الأولى)، ووصف ما وقع من غير تأنق في العبارة وهو يسرد الحدث مستصحبا بدليل كل عمل قام به من كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله–عليه الصلاة والسلام–. واستهل– بعد الحمدلة والصلصلة– بقوله: (فهذه ألفاظ مختصرة في رحلة العبد الحقير الفقير إلى مولاه الكريم ابن الشيخ عبد الله، إبراهيم لا يزال في جمال مولاه يهيم سنة ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين حيث لم أزد على وصف ما وقع من غير تأنق في العبارة ولو تكلف لجئت بكل عمل عملته بدليله من السنة المطهرة وما توفيقي إلا بالله، ففي منتصف رمضان قوى عزمي على السفر إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج وفوز زيارة الوسيلة العظمى سيدنا ومولانا محمد رسول الله–صلى الله عليه وآله وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم–فأول ما صنعت استئذان والدتي ومشاورة خاصة إخوتي وأهل مودتين، وكتبت وصيتي والإشهاد عليها وقضاء ديوني وتحصيل نفقة تكفي العيال من بعدي وتحصيل زاد مبلغ ودفع ما أمكن من الصدقات واستئذان أرباب الدولة ودفع ما علي من حقوق دولتهم وصليت ركعتين –يوم الخميس التاسع من شوال– وقرأت في الأولى بالفاتحة وقل يا أيها الكافرون وفي الثانية بالفاتحة والإخلاص.....) وهكذا استمر وهو يصف جميع محطات التي مر بها حتى بلاد الهوسا إلى ألقى عصا التسيار والترحال بباب سيد الأولين والآخرين محمد– صلى الله عليه وأله وسلم– ولم يزل يسرد الحدث حتى ذكر لنا الكتب العلمية التي ظفر بها في هذه الرحلة. إلى أن قال: (..... وقد ظفرت يوم الجمعة السادس عشر من شهر ذي الحج بعدة كتب كلها من

---

[١٤] – أمير المؤمنين محمد بيلو، مصدر سابق، ص ٥٦.

[١٥] – لا تزال بقية من ذرية الشيخ عمر الفوتي موجودة في نيجيريا إلى اليوم. وقد سكنوا مدينة تقع على حدود الشمال الشرقي من نيجيريا وهي مشهورة تُسمى(يلّيمن)–Yanlleman–وهي الآن تحت ولاية جيغاوا–Jigawa– وما زالوا متحفظين بالتراث التاريخي للشيخ عمر الفوتي وحفيده الاكبر دائما يلقبونه بأمير المؤمنين.

[١٦] – الشيخ عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم على نحور حزب الشيطان الرجيم. ص٢٣١، مكتبة الوطنية،مدينة فاس. ١٩٩٦م.

[١٧] – الشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله نياس الكولخي، البيان والتبيين عن التجانية والتجانيين، ص٤٧، مكتبة النهار، القاهرة ٢٠٠٩م.

مكة المكرمة وأذكرهم في الآتي: (مصحف شريف أجزاؤه اثنا عشر. فتح الباري ومقدمة ابن حجر العسقلاني. الكرماني على البخاري. تنوير الحوالك على موطأ الإمام مالك. ديوان عمرو ابن أبي ربيعة المخزومي. كمال البلاغة. الرسالة النادرة. حصول المأمول في الأصول وهدي الرسول. جزء من تفسير الفخر الرازي. الجسوس على الشمائل. قواعد أبي الفرج. إرشاد الفحول. غاية النهاية في طبقات القراء. البداية والنهاية في التاريخ. الاستخراج في أمكان الخراج. مجموعة رسائل الخمس. تأييد القول بنجاة أبوي الرسول. ثلاثة أجزاء من حلية أبي نعيم. رياض الجنة. جواهر الألفاظ. الاعتصام للشاطبي. قواعد الإمكان لابن عبد السلام. ديوان أشعار الصحابة.).. وهكذا إلى أن قال: (.....وقد اختصرت الرحلة أي اختصار ولم أذكر ما يتعلق بالنفقات والركوب بحرا لأمرين: أحدهما إنه يختلف باختلاف الأزمنة والسكك، والثاني إن فيه بعض تنفير إذا أحصي كله يظن الظان أنه لا يكفي ما دونه فيعوق فيكون عليّ إثم من ذلك. .....[١٨]) .

قافلة موكب الحجاج الملوك والامراء:

تختلف هذه القافلة عن سابقتها بكونها موكب جميع أفرادها كانوا من حاشية الملك وخاصيته وأعضاء مجلسه. ولا سانحة لأحد من الناس ويصحب معه العلماء الذين يرجع إليهم في أمور الدين وفيها من أفراد الأسرة الملكية. كثير من الملوك والأمراء الذين سافروا إلى بلد الله الحرام لأداء شعائر مناسك الحج والعمرة وزيارة المصطفى–عليه الصلاة والسلام، وحظ إفريقيا الغربية ليس بقليل، سجل التاريخ لنا أن كثيرا من ملوك وأمراء هذه القارة سافروا إلى الحج بعد اعتناقهم الإسلام وساد العدل وحاربوا الظلم والجور كالملك العادل منسا موسى، والسلطان محمد أسكيا ولا تزال سيرتهم الحسنة تروى في الكتب الإفريقية العريقة. أراد السلطان محمد بيلو مايرنو الحفيد الخروج إلى أرض الحجاز –فارا بدينه وعرضه–بعد سقوط دولة صكتو واستشهاد أمير المؤمنين الطاهر(Attahiru)، وبعد أن قام القوات البريطانية الاستعمارية بمطاردته حتى في حدود إمارة غومبي (Gombe Emirate) وهنا كانت المعركة الأخيرة بين القوات الاستعمارية وقوات دولة مملكة صكتو. إلا انه لم يوفق للوصول إلى الحجاز ،ونزح إلى بلاد السودان في منطقة في جنوب الجزيرة الواقعة في ولاية سنار وابتنى مدينة سمي باسمه(مايرنو)[١٩]. وهي الآن من المدن التاريخية بالولاية. وفي الآونة الأخيرة من الملوك الذين سافروا إلى الحج الملك الحاج عبد الله بايرو[٢٠] وفي هذا العام –في موسم الحج– التقى هذا الملك بالشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله نياس الكولخي ومن كانت بداية العلاقة الدينية بين بلاد الهوسا والشيخ إبراهيم وكانت العلاقة هذه سببا في نفع العباد والبلاد في الشؤون الدينية مما توسع ذلك إلى الدول المجاورة أمثال دولة نيجر والتشاد والكاميرون وغيرها من الدول الإفريقية الغربية وله الفضل في نشر الإسلام ودخول الناس إلى الدين أفواجا هنا وكذلك التصوف في البلاد.

خلاصة الورقة:

لقد المسلمون في بلاد الهوسا–نيجيريا– يقومون بأداء فريضة الحج مع أنه شاق جدا في ذلك الزمن، وكان يستغرق عدة سنوات. وكان الحجيج يخرجون في قافلة صوب الشرق ويتكسبون في الطرقات إما بالتجارة أو

---

[١٨] – الشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله الكولخي، مجموعة رحلات الشيخ إبراهيم.ص٤٨، مخطوط.

[١٩] – حصل نوع من التحريف أصلها في اللغة الفولانية ورنو(Wurno) وكانوا يسمون السلطان (Mai Wurno) أي صاحب ورنو. واستخدمت بمدلولاتها المحلي ثم أعربتها العرب إلى (ما يرنو).

[٢٠] – اشتهر الملك عبد الله بايرو بلقب–الملك الحاج–(Sarki Alhaji) وهو أول ملك أدى مناسك الحج وهو على عرش الملك، ومما تذكر الرواية أن الملك عبد الله بايرو هذا مان كثيرا ما كان يدعوا الله تبارك وتعالى ويسأله أن يحقق له أمنياته الثلاث. وهي: أن يكون ملكا لإمارة كنو، أن ييسر له أداء مناسك الحج، أن يؤيده الله برجل صالح يقتدي به في أمور الدين وشؤون الملك.

الصناعة أو كليهما. وربما يقومون في بعض الأحايين بالأعمال الزراعية إما لغيرهم وإما لأنفسهم. ويقوم البعض من العلماء والدعاة بالتدريس خلال السفر كما يقوم بالتعليم إذا صادف من هو أعلم منه في الطريق ويعودون إلى بلدانهم بالكتب الدينية والثقافة العربية. وكان أمثال أولئك–العلماء والدعاة المصلحين–إذا مرّ بالأزهر الشريف انتهزوا الفرصة واستمعوا إلى مشايخه وإلى علمائه الكبار. واتصلوا بهم وبغيرهم من العلماء وكونوا صداقة معهم وأفادوا واستفادوا في العلم ومن خلال الرحلات الإيمانية كثر في البلاد النشاط العلمي كثر العلماء وتعددت المراكز البينية والعربية وقام العلماء بتدريس علوم دينية وعربية فضلا عن القرآن الكريم. والذي يغلب على الظن أن أمثال هؤلاء كثيرون لكثرة من يقوم بأداء هذه الفريضة من غرب إفريقيا ولكن كتب التاريخ لمتذكر إلا القليل ممن نبغ واشتهر منهم.

النتائج:

أثبتت الدراسة بأن الرحلة الإيمانية إلى الحجاز عبر الطرق التقليدية في القرون الماضية لعب دروا مهماً في نشر الثقافة العربية في إفريقيا.

فتحت طرق الحج قديما مجالا واسعا للتعرف على الشعوب الإفريقية المسلمة وغيرهم من الشعوب.

للممالك والسلاطين دور مهم في استضافة وتكريم العلماء والدعاة في سبيل الله تبارك وتعالى وتكريمهم وحسن الوفادة.

أقام العلماء مراكز إشعاع ديني في إفريقيا بفضل الخطوط البرية للحج وساهم المحليون، بحسن المعاملة والضيافة والاستقبال وتوفير سبل الراحة والمعيشة لهم.

لعبت الطرق التقليدية القديمة–طرق الحج– في تحقيق رسالة الإسلام وثقافة السلام والتعايش السلمي بين الشعوب الإفريقية.

أثبتت الدراسة مدى اهتمام الملوك والسلاطين والأمراء في إفريقيا –بصفة عامة– وفي بلاد الهوسا بصفة خاصة بالعلماء والدعاة فقد فتحوا أمامهم المجال في البلاد والعباد إلى أن انتشر الإسلام والسلام.

إنشاء مراكز تجارية وثقافية بفضل خطوط طرق الحج القديمة.

كما ثبت أن العلاقة التجارية والدينية والثقافية بين الشعوب العربية والإفريقية علاقة قدينة وأن إفريقية لهي مهد الدين الإسلامي منذ الفجر الأول.

توصيات:

أن توفر الإمكانات في مؤتمرات عديدة لدراسة التراث الإفريقي الإسلامي.

إعادة النظر في بعض الروايات التاريخية الدينية لإفريقيا في المصادر الأجنبية.

توثيق المصادر المحلية والروايات الشفوية.

ترجمة الشخصيات الإفريقية الدينية من علماء وسلاطين وملوك الذين لهم الدور في نشر الثقافة العربية والعلوم الإسلامية.

الاهتمام بمزيد من البحث في التراث الإسلامي قبل قيام دولة صكتو.

توثيق تاريخ الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا.

العناية بالآثار الإسلامية في إفريقيا.

الهومش والمصادر:

- الإمام مالك عن محمد بن أبي بكر الثقفي، ط مكتبة القاضي شريف بلا كنو،٢٠٠٧م.
- الشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله الكولخي، الرحلة الحجازية الأولى، . مخطوط
- أمير المؤمنين محمد بيلو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور.
- Kano Studies, Volume 1 N04, 1968,pp17.
- د. شيخو أحمد سعيد غلادنثي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا،ط ٢، المكتبة الإفريقية، ١٩٩٣م-١٤١٤هـ.
- محمد الوالي، كتاب النصائح، مخطوط.
- الجبرتي، عبد الرحمن بن الحسن،عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، مطبعة بولاق،ج١.
- الشيخ عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم على نحور حزب الشيطان الرجيم، مكتبة الوطنية،مدينة فاس. ١٩٩٦م.
- الشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله نياس الكولخي، البيان والتبيين عن التجانية والتجانيين، مكتبة النهار، القاهرة ٢٠٠٩م.
- الشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله الكولخي، مجموعة رحلات الشيخ إبراهيم مخطوط.